م.م نور رعد خلف

نظرية الحاجات لـ(مالينوفسكي)

تعود نظرية الحاجات الأساسية لـ(برونيسلاف مالينوفسكي) (١٨٨٤- ١٩٤٢)، في تفسير الدوافع أو الحوافز النفسية والاقتصادية والاجتماعية لأفراد المجتمع المبحوث، وترتبط الحاجة بطبيعة الكائن الحيّ، ومن الاستحالة وجود عنصر ثقافي في النسق الثقافي من دون أن يحقّق الحاجة التي قد تكون بسيطة ومرتبطة بطبيعة الكائن الحيّ، أو أن تكون أكثر تعقيداً، وهي جزء من النظام العام، ويذكر (مالينوفسكي) أنه لا يوجد نسق من الأنشطة يمكن أن يستمرّ من دون الاتّصال المباشر وغير المباشر بالحاجات الإنسانية وما تحقّقه من رضا وتأصيل لها، ولفهم أيّ عنصر من عناصر الثقافة يجب أن يوضّح عن طريق أشياء أخرى هي درجة العلاقة سواء بطريقة آليّة أو مباشرة بتحقيق الحاجات الأساسية.

ويتّفق علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على أن الحاجات الإنسانية مُتعدّدة ومتنوّعة ومُتغيّرة وتتباين بتباين الفروق الحضرية والثقافية التي تُشكّل هذه الحاجات، فهناك حاجات عامة (بيولوجية) مشتركة بين الناس كيفما كانت ثقافاتهم، وحاجات ثانوية اجتماعية واقتصادية، وتتفاوت طريقة إشباعها من مجتمعٍ لآخر، ويعكس هذا التفاوت عادة تمايز هذه الحاجات من ثقافةٍ لأخرى، وقد أوضح (ماسلو Maslow) أن الحاجة والطلب Want شيء واحد، وصَنَّف الحاجات إلى عضويةٍ ونفسية وأخرى حاجات اجتماعية' وأدّى تباين الحاجات من مجتمعٍ لآخر إلى تعذّر وضع تعريف دقيق لها، فقد عَرّفها (كرتش Krech) بأنها القوى الدائمة التي تكمن وراء السلوك الإنساني، وتساعد على اندماج الأشخاص في الأنساق الاجتماعية أو تنافرهم منها وتوافقهم مع القيم أو عجزهم عن ذلك، وتؤيِّد (دورثي Dorthy Lee) هذا الرأي وتؤكِّد أن السلوك الإنساني إنما هو استجابة إلى حاجةٍ أو ردّ فعلٍ للحرمان من هذه الحاجة، وإن السلوك البشري أيّاً كان، يؤدّي بالضرورة إلى إشباع بعض الحاجات التي يشعر بها الإنسان، فالمرء حين يخرج لجمع الفاكهة أو الصيد أو حين يحلب بقرته أو يذبحها، فهو يفعل ذلك للحصول على المواد الخام التي يحتاجها جسمه وهكذا، فالحاجة إلى الغذاء عملية مُعَقَّدة تتحكَّم بها أجزاء مُتَعدِّدة تشير إلى الدافع الأصلي وهو الجوع، وهذا يوضِّح أن الوظيفة التكاملية لهذه العمليات التي تدخل في تكوين هذا الكل الثقافي وهو إشباع الحاجات البيولوجية الأولية، والشيء نفسه ينسحب على شتّى الظواهر والدوافع والفعاليّات الموجودة في المجتمع.

وعَدَّ (مالينوفسكي) أن وحدة التحليل الثقافي هو النظام، وكل نظام يمكن أن يتمّ تحليله على مجموعة القوائم التي تؤدّي في النهاية إلى السلوك الاجتماعي، فمحاولة تحديد العلاقة بين العمل الثقافي والحاجات البشرية الأساسية والمُشتقة يمكن وصفها بأنها وظيفية، لأنه لا يمكن تحديد الوظيفة إلّا عن طريق إشباع إحدى الحاجات بفضل إحدى النشطات التي يتعاون الناس في إقامتها في أثناء تفاعلاتهم اليومية

وقد طوَّر (مالينوفسكي) تحليله في إطار المدرسة الوظيفية، فكان مفهومه للوظيفة مرتبطاً بفكرة الضروريات الإنسانية' وتدور هذه النظرية بحسب (مالينوفسكي) بربطه مفهوم الثقافة بكل جوانبها المادية والروحية بالاحتياجات الإنسانية، فإن أيّ مجتمعٍ تنمو ثقافته وتتطوَّر في إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية لأفراده، وقد حصرها بسبع حاجات وهي: التغذية والإنجاب والراحة البدنية، والأمان والاسترخاء، والحركة والنموّ، ولتحقيق تلك الرغبات نشأت النُظم الاجتماعية. وعَرَّف الحاجة الثقافية بأنها مجموعة الحقائق المُلهمة، العادات ودوافعها، والاستجابات المكتسبة وأسس التنظيم المرتبة في سلسلة من "التسلسلات الحيويّة" الدائمة في جميع الثقافات، والتي تعمل على إرضاء دوافع الفرد وديمومة ثقافته. واهتمَّ بالمؤسسات الاجتماعية كنماذجٍ لسلوكيات المُنَظّمة، وإن مثل هذا السلوك يضمُّ عدداً متنوّعاً من الأشخاص، والمؤسسة بمجموعها هي نسق اجتماعي، ويعتقد بأن التنظيم الاقتصادي والقانون والتعليم والسحر والدين يمكن وصفها بأنها (ضرورات مفيدة)، أما المعرفة والفن فضروريان لبقاء الإنسان (حتميّات متكاملة).

وفي واحدةٍ من دراساته المهمّة (مغامرو المحيط الهادي الغربي) أثبت أن نهج الاحتياجات الخاص به، أداة مفيدة للغاية لجمع البيانات وتحليلها وفهم أشكال السلوك البشري المتنوّعة، فقد كان يصف المؤسّسات الأساسية بأنها تتكوّن من مجموعاتٍ مرتبطة بجزءٍ مُعَيَّن من البيئة ومُجَهَّزة بمعدّاتٍ مادية، ومعرفة كيفية استعمال هذه البيئة والمعدّات، والاستعمالات اللغوية التي تُمَكِّنهم من التعاون، والقواعد والقوانين التي تحكم سلوكهم ومجموعة المعتقدات والقيم المشتركة لسكان جزيرة (تروبرياند) الذين يعتمدون على صيد الأسماك وزراعة البطاطا، فقد وصف الزورق بالنسبة لمجموعة الرجال الذين قاموا ببنائه واستعملوه والسحر المُستعمل عليه، ووصفه لمخزن الحبوب والكلمات المرتبطة بالعمل والبستنة والأنشطة المماثلة كالتبادلات الاقتصادية التي تدعم المكانة الذاتية والاجتماعية التي تجري في هذه المجتمعات وتزيد من تماسك أفرادها ووحدتهم مثال ذلك (نظام الكولا) ، وبيَّن أن الواقع الاقتصادي والمعاشي لهذه المجتمعات يعكس دور

المرأة الذي يُعَدُّ تكميلياً وثانوياً، وإن تقسيم العمل بين الذكر والانثى يُنَمّي عند الانثى الشعور بالتآزر والتضامن المطلوبَين بتدعيم علاقاتهما الزوجية ، وهنا أكَّد (مالينوفسكي) أن الثقافة أداة فَعّالة ومؤسّسة لإشباع الحاجات البيولوجية الفطرية للأفراد، وأن الاستجابات الثقافية للحاجات الأساسية توجد ظروفاً جديدة، وهذه الحاجات تظهر في ضرورات أو محدودات تفرض على السلوك الإنساني عن طريق مَيل الإنسان إلى مزيدٍ من التكييف وإشباع غريزته، وقد استعار (مالينوفسكي) أنموذجه من العلوم الطبيعية، مُذَكِّراً أن البشر يكوّنون نوعاً حيوانياً، يشعر الفرد بعددٍ من الحاجات الجسمانية تُحدّد الضرورات الأساسية، والثقافة تجيب عن هذه الضرورات بإيجاد مؤسّسات ثقافية متنوّعة، وهو المفهوم المركزي لدى (مالينوفسكي) والذي يُعيّن الحلول الجماعية المُنظّمة للحاجات الفردية، ووفقاً لنظرية الحاجات وهكذا وضع (مالينوفسكي) خطوته الأولى بوضع تصنيف للاستجابات الثقافية بعلاقتها مع المؤسّسات، والخطوة الثانية هي تطوير فئات ثانوية هي الحاجات المشتقّة التي أدخلها بين الحاجات الأساسية والاندماج المؤسّساتي للسلوك الجمعي، ويؤكّد على أن الأسلوب المناسب لدراسة الثقافة ينبغي أن يتمَّ في ضوء الحاجات البشرية (human needs)، إذ يستطيع الباحث تحديد العلاقات القائمة بين هذه الحاجات المشتركة بين البشر جميعاً، كونهم كائنات بيولوجية، وبين الأساليب المُتّبعة من قبلهم في إرضاء هذه الحاجات والطرائق التي تؤمّنها، أسماها (مالينوفسكي) بـ(الاستجابات الثقافية Cultural responses) ، وهذا يسوِّغ الميل الثقافي لـ(مالينوفسكي) في بحوثه واهتمامه بدراسة القيم وسعيه في التعرّف على أشكال تماسكها وتكاملها في مواقف الأشخاص ومشاعرهم.

وفي كتابه الحدائق المرجانية وسحرها ١٩٣٥ وهي دراسة اثنوغرافية للطقوس المتعلّقة بزراعة البطاطا الحلوة والنخيل والموز والعادات والعلائق التفاعلية بواسطة تحليله لكلمات سحر التروبرياند، أكَّد (مالينوفسكي) أنه توصَّل إلى استنتاجٍ جديد بأن دور اللغة الأساس ليس التعبير عن الأفكار وليس نسخ الأفكار، بل هو دور عملي في تصرّفات الإنسان خصوصاً وكثير منها مقولبة في الشكل، مثل: التعويذات والهتافات والسرد والتي تكون مرتبطة دائما بالسلوك. وعن طريق ما يُسَمّيه (مالينوفسكي) بـ(الضرورات التكاملية) تندرج تحتها مصطلحات التقاليد والمعايير والقيم المعيارية والدين واللغة والتي تؤثّر في الوجود الثقافي للفرد، حيث تتحوّل العادة إلى عرفٍ ثابتٍ يشبع حاجة، والاندفاعات إلى القيم ومفتاح هذه العملية الرمزية، فالمعاني

والاشـارات التي تحملها الثقافة، هي وسـيلة لإشـباع الحاجات الغريزية عند الإنسـان مثل الجوع والتناسـل، وتَتحدّد قيمة النسـق الرمزي ومعناه، فيما يُحقّقه من إشـباع للحاجات الأسـاسـية لأفراد المجتمع. وأصـرَّ (مالينوفسـكي) على ارتكاز كل شـيء على الفرد وحاجاته، فهو يعتقد أن جوهر الثقافة الفرد وليس العكس، وضـرورة توافر لوازم مادية وقواعد نظم واجبة الاحترام لأحكام الضـبط الاجتماعي، فضلا عن وجود تقسيم العمل على أساس الجنس والسنّ.